

1/ مفهوم التداولية :

-التداولية لغة واصطلاحا :

التداولية لغة :

جاء في لسان العرب : ... تداولنا الأمر أخذناه بالدول ، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس ، وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة.¹

التداولية اصطلاحا :

تبنى الباحثون العرب مصطلح التداولية ، أول من اقترح مصطلح التداولية هو طه عبد الرحمن في كتابه أصول الحوار ، وقد تبناه أحمد المتوكل ، واستعمله فلكي استحسان المختصين² ، فالملاحظ أن المعاجم العربية أنها لا تكاد تخرج في دلالتها على معاني التحول والتبدل والانتقال سواء من مكان إلى آخر أو من حال إلى أخرى .. والنقل والدوران يدلان في استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين ، فيكون التداول جامعا بين اثنين هما التواصل والتفاعل . وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمان حاج صالح استعمل مصطلح الاستعمال³ كمقابل لـ pragmatic .

إضافة إلى وجود مصطلحات أخرى صادفتها خلال بحثي مثل علم التخاطب ، الذرائعية البراغماتية ، وغيرها .

إن أقدم تعريف التداولية نجده عند شارل موريس 1938 وهو تعريف واسع إذ يقول : " إن التداولية جزء من السيميائيات ، وتهتم بمعالجة العلاقة بين العلامة ومستعملها "⁴ . ويجدد رودوف كارناب التداولية بأنها قاعدة اللسانيات.

ويرى فرنسوا ريكانتي بأن التداولية جزء من دراسة استعمال اللغة في الخطاب ، والآثار الخاصة في اللغة والتي تشهد على مقدرتها الخطابية.

¹ أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، لبنان ، ط 1 ، 1300 ، مج4 ، ص 252.

² محمد مندور ، نظرية القراءة الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة - دراسة تداولية - ، مجلة الواحات والبحوث والدراسات ، جامعة غرداية، الجزائر ، العدد 12 ، 2012 ، ص52.

³ ينظر ، نفس المرجع ، ص52.

⁴ ينظر ، على آيت أوشان ، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ،

المغرب ، ط 1 ، 2000 ، ص55.

والتداولية مفهوم يستعمل اسم التداولية كما يستعمل صفة مقارنة تداولية ، فن فرعي من اللسانيات ونزعة ما في دراسة الخطاب أو بصفة أوسع تصور للغة.¹ كما تعرف بأنها دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات التخاطبية². وقد كانت النزعة في الستينيات تميل إلى تعريف التداولية على أنها " سلة مهملات اللسانيات".

وهي عبارة تعني أن مهمة التداولية إيجاد حل لجميع القضايا التي لم تعالجها اللسانيات (وهي تحمل على أنها الصوتية والتركييب والدلالة) وضمن هذا التصور لم تعد التداولية سلة مهملات بل أداة لتبسيط اللسانيات³.

ويعرفها جورج يول بأنها دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم ، يتضمن ميدان الدراسة هذا بالضرورة تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين وكيفية تأثير السياق فيما يقال كما يتطلب أيضا التمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقا لهوية الذي يتكلمون إليه ، وأين ، ومتى وتحت أي ظروف.⁴

على درجة من الغموض إذ *pragmatique* ويرى فليب بلا نشيه أن مصطلح يقترن به في اللغة الفرنسية ، المعنيان ، " المحسوس " و " ملائم للحقيقة " أما في الإنجليزية ، *pragmatic* هي اللغة التي كتبت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية فان كلمة تدل في الغالب على " ماله علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية " وهكذا يبدو لأول وهلة أن الحقل الذي فتحه هذا الاختصاص العلمي ضخم ، وتلقى عموما بأنه كيان غامض ، أو نقل جرابا جديدا تضع فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسية . وهي اللسانيات ، وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي والدلالية ... إلخ نحو المشاكل التي أثارها هذه الاختصاصات ول تتوصل إلى معالجتها بشكل مرض.⁵

¹ باتريك شارودو دومينيك - دومينيك مانغنو ، معجم تحليل الخطاب ، ترجمة عبد القادر المهيري - ، حمادي صمود ، دار سيناترا ، تونس ، 2008 ، ص 442.

² محمد يونس علي ، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ، دار الكتاب ، بنغازي ، ليبيا ، 2004 ، ص 13.

³ جاك موشلار - آن ريبول ، القاموس الموسوعي للتداولية ، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجذوب ، دار سيناترا ، ط2 ، تونس ، 2010 ، ص 28.

⁴ جورج يول ، التداولية . ترجمة قصي العتابي ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2010 ، ص 19.

⁵ فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غومان ، ترجمة صابر الحباشة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط1 ، 2007 ، ص 17.

التداولية هي مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية ، وهي كذلك الدراسات التي تعنى باستعمال اللغة ، وتهتم بقضايا التلاؤم بين التعبيرات الرمزية والسياقات المرجعية ، والمقامات المرجعية .

ويرى كل من ديكر وركاناتي أنها تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب ، وتنتظر في الوسميات الخاصة به . قصد تأكيد طابعه التخاطبي .

ويحدها سفر كذلك بأنها الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات ، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل¹ .

2- علاقة التداولية بالحقول المعرفية:

التداولية في مجملها تدرس الكلام وعلاقة بمنجزه ، و الكيفيات التي يحقق بها أغراضه من خلال هذا التعريف ، يمكننا حصر موضوع التداولية في دراسة العلاقة بين المتكلم والسامع بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملاسبات وشروط مختلفة ، حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللغوية وعمليات الاتصال والتفاعل ، والتداولية بوصفها منهجا في دراسة اللغة له أسسه ومفاهيمه إلا أن لها علاقة بالمستويات اللسانية عموما فأين يمكن تحديد تلك العلاقة ؟.

-علاقة التداولية باللسانيات :

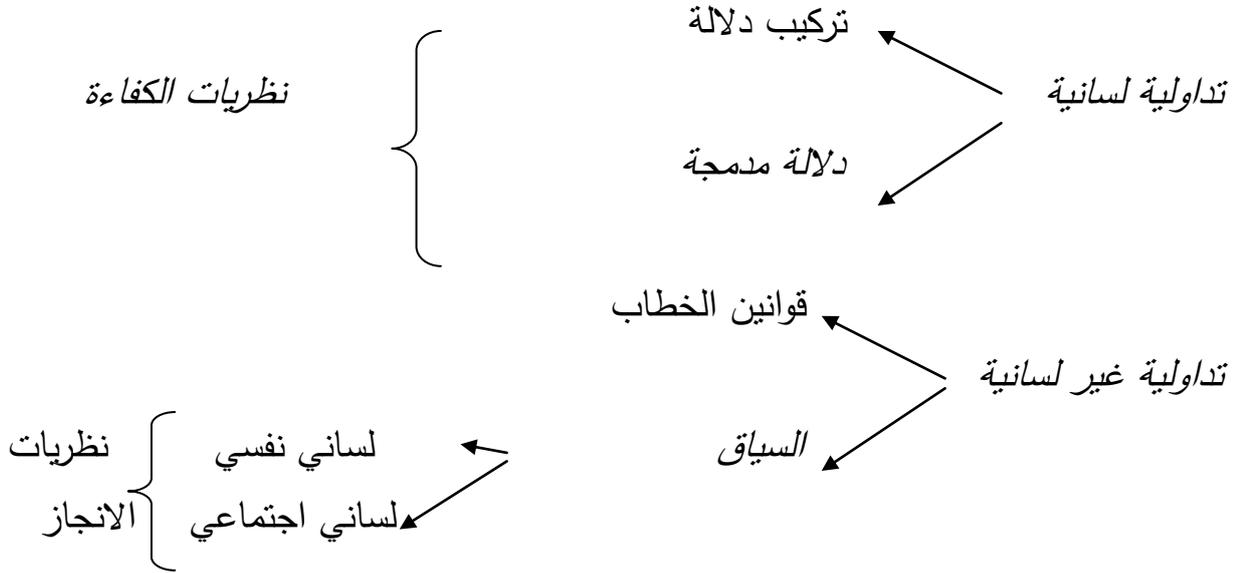
موضوع التداولية واللسانية هو : " اللغة " إلا أن طريقة المقارنة في كليهما مختلفة ويصف " كارناب " التداولية بأنها " قاعدة اللسانيات أو أساسها المتين الذي تستند إليه² . " وقد كانت النزعة في الستينيات تميل إلى تعريف التداولية على أنها سلة مهملات اللسانيات " وقد تعني أن مهمة التداولية إيجاد حل لجميع القضايا التي لم تعالجها اللسانيات أو لا تستطيع تناولها ، ومن حسن الحظ أن ظهرت تعريفات إيجابية تسند إلى التداولية وظيفة معالجة بعض القضايا من جهة نظر غير لسانية ، وهي قضايا متعلقة بالنظرية اللسانية ، وضمن هذا التطور لم تعد التداولية سلة مهملات بل أداة لتبسيط اللسانيات³

¹ ينظر ، التداولية من أوستين إلى غومان ، المرجع السابق، ص 18 / 19 .

² ينظر ، المسعود الصحرابي ، التداولية عن العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 2005 ، ص 21 .

³ ينظر ، نفس المرجع ، ص 21 .

أما موشلار وأن ريبول فيميزان ما بين نوعين من المظاهر التداولية ، ما يرتبط منها بالبنية اللغوية وما يرتبط منها بالسياق غير اللغوي.



-علاقة التداولية بعلم الدلالة:

إن التداخل الحاصل بين التداولية وعلم الدلالة مرده " إلى أن كل منهما يتناول المعنى وهذا التداخل هو الذي أعاق اتفاق الألسنيين على ضرورة الفصل وبيان حدود كل مجال " ، لأن كليهما يحاول تبين معنى كلمة أو عبارة أو جملة ، ولا يمكن أن يكون ذلك بمعزل عن علاقة الأمر بالمتكلم ومقاصده ، وكذا الموقف الذي يجري فيه الكلام.¹

كما نعلم أن شارل موريس هو أول من حاول إدخال نوع المقابلة للتمييز بين مجالات اللغة الثلاث :

01 -المجاز اللغوي أو التركيبي : يتعلق الأمر هنا بمجموعة القوانين التي تضبط عملية الصحة النحوية للكلام من أجل أن يكون مقبولاً لدى مستخدمي اللغة المستعملة في التعبير .

02 -المجال الدلالي : مجموعة العلائق القائمة بين المعاني والأشياء التي تعنيها في إطار سياق اللغة.

¹ ينظر، في تداولية الخطاب ، المرجع السابق ، ص 22.

03 -المجال التداولي: وهو الذي يدرس علاقة بين العلامات باستعمالاتها ومقاماته وأطرافها التداولية.¹

ويمكن تحديد علاقة التداولية بعلم التركيب والدلالة في المقولة التالية لموريس :
" تقوم القاعدات التركيبية بتحديد العلاقات بين الدوال ، وتقوم القاعدات الدلالية بتثبيت الترابط بين الدوال والموضوعات ، أما القاعدات التداولية فتحدد الشروط التي يكون فيها الدال علامة بالنسبة للمتحدث ، وهكذا يمكننا وصف لغة ما بشكل شامل قائلتين : إن اللغة بحسب مفهومها السيميائي التام للجملة هي : عبارة عن مجموعة بين شخصين للدوال التي يسير استخدامها القاعدات التركيبية والدلالية التداولية.²

نستخلص من هذا القول أن علم التركيب يعنى بوضع الشروط المحددة والقواعد التي تضمن صياغة الأقوال الجيدة ، أما علم الدلالة فيهم بالشروط التي تجعل الكلام مفهوماً والتداولية تعنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة.

-علاقة التداولية بالبلاغة :

إن التداولية تنطلق من هدف أساس هو استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسالة لغوية معينة ، وجعل المعنى بها يعيها ويتحرك في إطار إنجازها ، ولعل هذا ما يدفع بعض التداوليين المعاصرين إلى تعريف البلاغة بأنها " فن الوصول إلى تعديل موقف المستمع والقارئ " ، لأن البلاغة في نظر هؤلاء نظام له بنية من الأشكال التصويرية واللغوية يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد.³
ويرى لينتش أن البلاغة تداولية في صميمها إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما

¹ ينظر ، في تداولية الخطاب ، المرجع السابق ، ص 23/22.

² هربت بريكلي ، مقدمة في علم الدلالة الألسنين ، ترجمة قاسم مقداد ، ج1 ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1990 ، ص 35.

³ محمد سالم محمد الامين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، بحث في بلاغة النقد المعاصر ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2008 ، ص175.

، ولذلك فإن البلاغة والتداولية تتفقان على اعتماد اللغة كأداة لممارسة الفعل على الملثقي على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف¹.

-علاقة التداولية بالحجاج :

في علاقة الحجاج بالتداولية ، نجد التداوليين المعاصرين ينظرون إلى الخطاب الحجاجي على أنه " متميز بخصائص بنائية تواصلية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات كما أن صورته البنائية الاستدلالية والكلامية وخضوعه لشروط القول والتلقي والمقام والرغبة في التأثير والفعل ... كلها تركز ذلك التميز من جهة ثانية انتماء القول او النص الحجاجي إلى مجال التداوليات بالرغم من اتساع هذا المجال منهجيا وعدم ضبط حدوده - حيث أن هذا المجال يضع من أولياته الإجابة على عدة أسئلة حجاجية مهمة مثل من يتكلم ؟ والى من يتكلم ؟ وماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟ وكيف نتكلم شيئا ونريد قول شيء آخر ؟ وهي أسئلة تتطلب الإجابة عنها استحضارا جيدا لمقاصد المتكلم وأفعال اللغة بأبعادها التداولية والسياقية وخاصة الحجاجية ، نظرا إلى ما تنطوي عليه هذه الأخيرة من أبعاد شاملة تستوعب كل الأنماط الخطابية².

• أفعال الكلام :

أصبح مفهوم الفعل الكلامي speech act نواة مركزية في الكثير من الاعمال التداولية ، وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري ، فضلا عن ذلك ، يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية actes licutoires لتحقيق أغراض إنجازية actes illcutoires (كالطلب والأمر والوعد والوعيد ... إلخ) ، وغايات تأثيرية actes perloutoires تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول) ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب ، اجتماعيا أو مؤسساتيا ، ومن ثم إنجاز شيء ما³.

¹ صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة بني ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، ... دط ، دت ، ص 89.

² ينظر ، الحجاج في البلاغة المعاصرة ، المرجع السابق ، ص 176/177.

³ ينظر ، التداولية عند العلماء العرب ، المرجع السابق ، ص 40.

هذا ن وقد توصل أوستين في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم " الفعل الكلامي الكامل " acte de discours integral إلى ثلاثة " أفعال " فرعية ، على النحو التالي :

1 -فعل القول (أو الفعل اللغوي) :

ويراد به " إطلاق الالفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة " ففعل القول يشتمل بالضرورة على أفعال لغوية فرعية ، وهي المستويات اللسانية المعهودة : المستوى الصوتي ، والمستوى التركيبي والمستوى الدلالي ، ولكن أوستين يسميها أفعالا : الفعل الصوتي ، والتلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة ، وأما الفعل التركيبي فيؤلف مفردات طبقا لقواعد لغة معينة ، وأما الفعل الدلالي فهو توظيف هذه الأفعال حسب معان وإحالات محددة فقولنا مثلا :
-إنها ستمطر.

يمكن أن يفهم معنى الجملة ،ومع ذلك لا ندري أهي : إخبار ب : " أنها ستمطر " ، أم تحذير من " عواقب الخروج في الرحلة " ، أم " أمر بحمل مظله " ، أم غيرذلك ... إلا بالرجوع إلى قرائن السياق لتحديد " قصد " المتكلم أو " غرضه " من الكلام .

2 -الفعل المتضمن في القول:

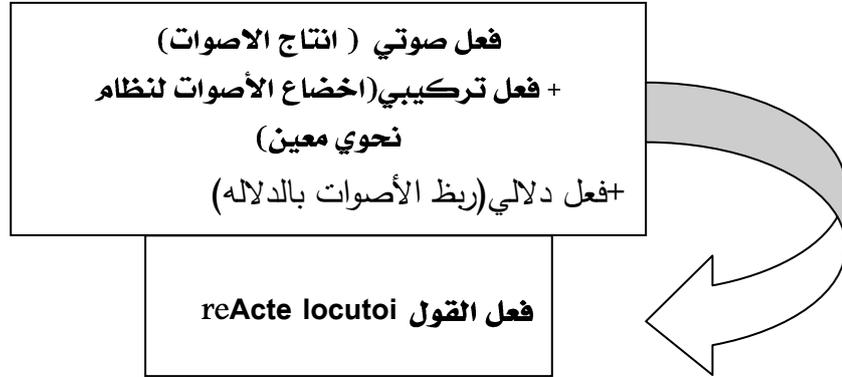
وهو الفعل الإنجازي الحقيقي إذ " إنه عمل ينجز بقول ما " ،وهذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود من النظرية برمتها ، ولهذا اقترح أوستين تسمية الوظائف اللسانية الثانوية خلف هذه الأفعال : القوى الإنجازية ، ومن أمثلة ذلك : السؤال / إجابة السؤال / إصدار تأكيد أو تحذير ، وعد ، أمر ، شهادة في محكمة ... الخ ، فالفرق بين الفعل الاول " أ " والفعل الثاني " ب " هو ان الثاني قيام بفعل ضمن قول شئ في مقابل الأول الذي هو مجرد قول شئ .

3 -الفعل الناتج عن القول

وأخيرا يرى أوستين أنه مع القيام بفعل القول وما يصحبه من فعل متضمن في القول والقوة ، فقد يكون الفاعل (وهو هنا الشخص المتكلم) قائما بفعل ثالث هو " التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر ، ومن أمثلة تلك الآثار : الإقناع ، التضييل ، والإرشاد ، التنبيط ... "

ويسميه أوستين : الفعل الناتج عن القول ، وسماه بعضهم " الفعل التأثيري " ¹ ونخلص الآن إلى تلخيص البنية العامة للأفعال الكلامية عند أوستين في الشكل الآتي :

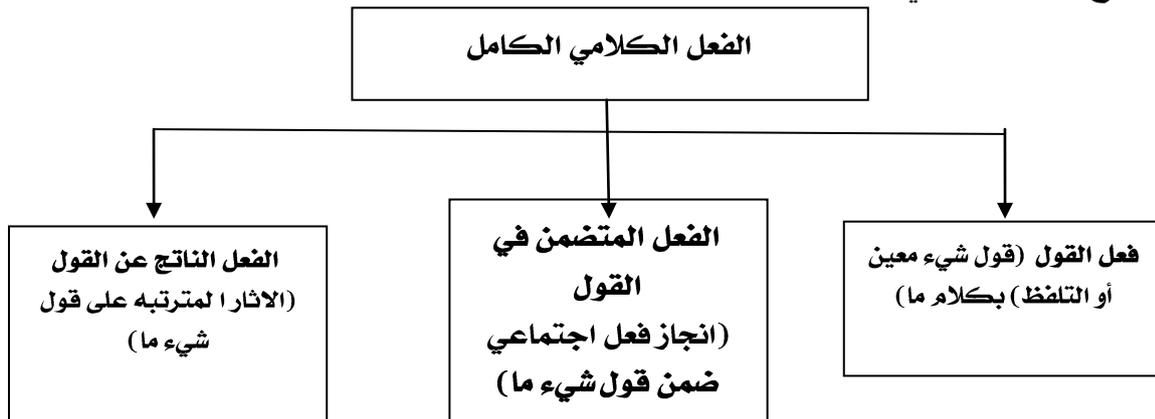
الفعل الاول : فعل القول ، وبنيته وهي كالاتي :



العلان الثاني والثالث: الفعل المتضمن في القول والفعل الناتج عن القول



وتتضح هذه البنية في الخطاطة أدناه



¹ ينظر ، التداولية عند العلماء العرب ، المرجع السابق ، ص 42.

• خصائص الفعل الكلامي :

يلاحظ أوستين أنه توجد ثلاثة خصائص للفعل الكلامي الكامل :

-إنه فعل دال .

-إنه فعل إنجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات)

-إنه فعل تأثيري (أي يترك أثارا معينة في الواقع ، خصوصا إذا كان فعلا ناجحا).

ويقوم كل فعل كلامي على مفهوم " القصدية " ، وتقوم " مسلمة القصدية " على

أسس تداولية درسها فلاسفة التحليل ثم توسع في تفريعها وتعميقها التداوليون حتى غدت

شبكة من المفاهيم المترابطة ، فقد غدت قيمة تداولية نصية / حوارية ، وتعد مراعاة

مفهومها العام وشبكته المفاهيمية من أبرز المفاتيح المنهجية في الدراسات اللسانية

النصية .

ويتأكد الربط بين العبارة اللغوية ومراعاة مقاصد استاذة أوستين ، فقد عدّ " الغرض

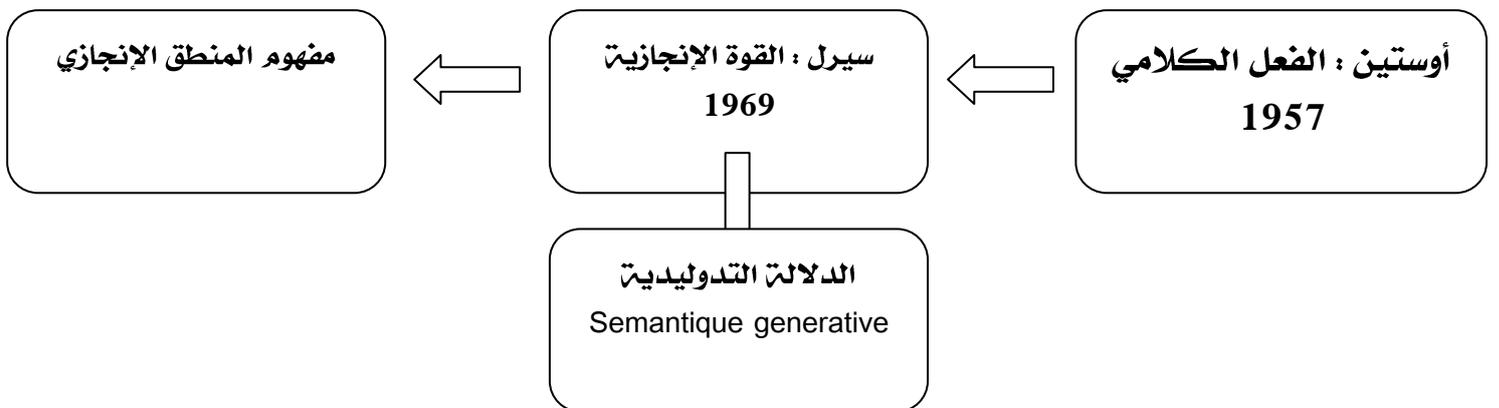
المتضمن في القول " but illocutoire عنصرنا وكونا أساسيا من مكونات " القوة

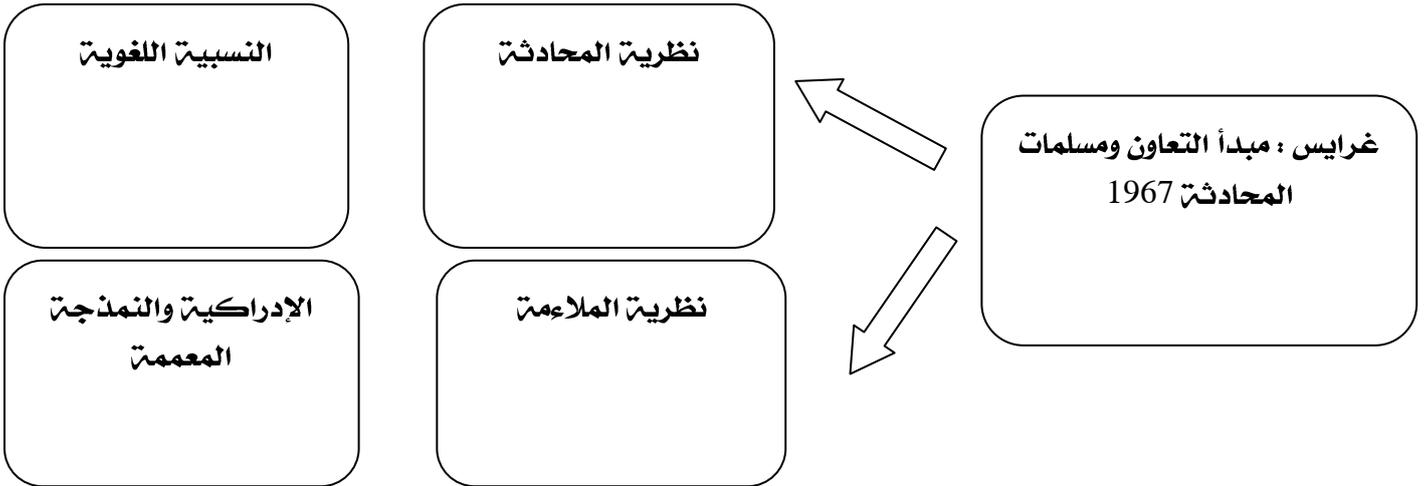
المتضمنة في القول force illocutoire .

* السياق التاريخي للمفاهيم التداولية :

وفي الاخير نختم بهذا الرسم الذي يضع أبرز المفاهيم التداولية في سياقها التاريخي

التطوري ، وقد نقلناه عن موشلر بشئ من التعديل .





• الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني "مقاربه تداوليه" :

نحاول دراسة الأفعال الكلامية الواردة في الخطاب القرآني من وجهة نظر التداولية ، وتنقسم إلى قسمين: مباشرة وغير مباشرة.

1 - الأفعال الكلامية المباشرة:

إن جهود "أوستين" و"سيرل" في مجال الأفعال الكلامية مهمة وفعالة، ولعلّ المبحث الأساسي لأعمالهما التحليلية هو الأفعال الإنشائية المتعلقة بالصيغة المباشرة، وشروط استعمالها في سياقات الحديث المختلفة، كالسؤال والتقرير، واستعمال مختلف الوسائل التي يتوقّر عليها المتحدّثون لكي يتواصلوا ويبلغوا فعل الكلام إلى المتلقّي.

يستعمل المخاطب الفعل الكلامي المباشر عندما يولي عنايته لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابية، ورغبته في أن يكلف المتلقّي بعمل ما، أو يوجهه لمصلحته من جهة وإبعاده عن الضرر من جهة أخرى، أو توجيهه لفعل مستقبلي معيّن. ويفترض أن يتجه المخاطب بخطابه إلى الكثير من فائدة المتلقّي، فيستعمل هذه الإستراتيجيات في شكلها الأكثر مباشرة للدلالة على قصده، كالأمر والنهي الصريحين.

1 - أ - أفعال التكليف والتوجيه:

يعدّ هذا المبحث جوهر القضية الاجتهادية في تفسير النصوص، ومسألة مهمة عند الأصوليين خاصة، كمسألة الأمر ودلالته في المواضعة والاستعمال، وهذه الأفعال طلبية توجيهية تحسب كمحاولات لتحقيق تأثيرها عبر فعل المستمع كالنداء والأمر والنهي والاستفهام وغيرها.

يعدّ النداء من الأفعال الكلامية التوجيهية، لأنه يحفز المتلقي لردّ فعل المتكلم. وأبرز أدواته (الياء)، ويحتلّ كثافة معتبرة في النصّ القرآني نظراً لارتباطه بالأمر والنهي. فالنداء أوّل فعل كلامي يقوم به المخاطب ليتمكّن بعد ذلك من تحديد مقاصده. وقد ظهر بأشكال مختلفة ومتفاوتة (يا أيها الناس، يا أيها الذين آمنوا، يا أيها النبيّ، يا داود، يا زكريّا، يا عيسى، يا موسى، يا أيها الإنسان، يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل، يا أيها الكافرون...).

يحرص الخطاب القرآني على التنويع في مخاطباته وأساليبه وفق منظور يحرص على بلوغ الفائدة لجميع المخاطبين، فيستعمل أداة النداء المناسبة، ثمّ يخاطب كلّ منادى حسب طبيعة إيمانه أو مكانته الخاصة والاجتماعية، إذ إنّهُ مرتبط بمقام التلقّي ومقاييسه " فخطاب الأذكىاء غير خطاب الأغبياء، وموضوع العقائد التي يتحمّس لها النّاس غير موضوع القصص، وميدان الجدل الصّاحب غير مجلس التعليم الهادئ، ولغة الوعد والتبشير غير لغة الوعيد والإنذار " ¹، وهذا يعود إلى تلك الخصوصية التكوينية للخطاب القرآني المرتبطة بالقدرة الإلهية الإعجازية.

تحقّق آليّة النداء في الخطاب القرآني أغراضاً مختلفة كالإغراء والتحذير والاختصاص والتنبيه والتعجب والتحسّر، وإنّ حمل كلّ هذه الآليات على بعضها التداولي يعطيها بعداً دينامياً يجعل الدراسة التداولية مناسبة لطبيعة الخطاب القرآني وبنيته.

لقد كان أوّل نداء في القرآن الكريم (يا أيها النّاس) ، وهذا دليل على رسالته العالمية، وتوجهه إلى كلّ النّاس. ومن ثمّ يبدأ تخصيص النداء حسب نوع الخطاب الذي يسعى القرآن الكريم إلى تبليغه، فقد بين الله تعالى وحدانية ألوهيته بأنّه وحده المعبود، وهو المنعم على عباده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وتكريمهم ومدّهم بالنعم المختلفة، ومن ثمّ استحقاقه للعبادة وحده دون غيره لقوله تعالى "يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدُوا رَبَّكُمْ

الَّذِينَ خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ " ².

لقد تجاوز القرآن الكريم نداء الإنسان إلى تشخيص الجامد، فنادى السّماء والأرض والنّار وغير ذلك، ليجعل منها كائنات تتحرّك وتستجيب لندائه وأوامره رغبةً وخضوعاً، بناء على

¹ عبد العظم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 1 ، 2001 ، ج 1 ، ص 188.

² سورة البقرة الآية: 21.

القاعدة الإلهية المعروفة " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ¹ .

فنادى الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تقلع، والنار أن تكون بردًا وسلامًا، ... لقوله تعالى: وَفِيلٌ يَأْرُضُ الْبَلْعَى مَاءَ كِ وَيَلْسَمَاءُ أَفْلِحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ

الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَفِيلٌ بَعْدَ لِقَومِ الْيَمِينِ ² .

لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الله الأرض بأن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء بأن تقلع عن المطر، ثم شرع الماء في النقص وقضى الأمر، وفرغ من أهل الأرض ممن كفر بالله، فلم يبقَ منهم ديار، واستوت السفينة بمن فيها على الجودي.

لقد كانت أفعال الكلام في هذه الآية بمثابة إنجاز تلفظي أعطى الأمور بعدًا دلاليًا وأساسياً لهذا الفعل، ولما صار القول فعلاً منجزاً ناداهما الله مرة أخرى أن تتوقفا، فقضى الأمر. لقد أدت الأفعال الكلامية في هذه الآية تغييراً واضحاً في العوالم والأماكن، مما أدى إلى إنجاز الفعل حال إيقاع الكلام.

يعتبر النداء في القرآن الكريم بمثابة مدخل للأفعال الكلامية الأخرى التي يأتي بعدها الهدف المقصود مباشرة، فاشتمل ما بعده على أصول التشريع وسياسة الخلق وقواعد الحكم، وآداب المعاملات، ونظم العبادات ودعوة إلى التوحيد. وقد لفت الأنظار إلى قدرة الله البالغة، وعلمه المحيط بكل شيء، والبرهان على صدق الرسالة المحمدية، وأنها متممة للرسالات السابقة، وتحدّد سلوك الإنسان لجعله يرقى إلى المكانة اللائقة به والتي أرادها الله له. من هنا نفهم أنّ النداء طلب واستحضار يراد منه إقبال المدعو على الداعي ليتمكن من توجيه ما يريد، ويصحب في ذلك غالباً الأمر والنهي. فعن ابن مسعود أنه قال: " إذا

¹ سورة ياسين الآية: 82

² سورة هود الآية : 44.

سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا، فأوعها سمعك فإنه خير يؤمر به، أو شر يُنهى عنه¹.

لقد ترسخت التداولية كدراسة لغوية تتناول فعل القول، فالنصّ وظيفة يقوم بها المتكلم بإنجاز فعل كلامي أو سلسلة من الأفعال الكلامية كالوعد والأمر...²، يبين من خلالها هدفه في ممارسة الحوار ما دامت الحقيقة مرتبطة بحركة التواصل والمعنى المستهدف. ما يمكن ملاحظته في آيات القرآن الكريم أنّ الأمر لم يرد منفصلاً عن النهي، وإنما وردا متشابكين ومتداخلين مع بعضهما حتى صعب الفصل بينهما، وهذا راجع لطبيعة القرآن الكريم المرتبط بالجانب التشريعي ونظام المعاملات والعبادات والعقائد، فكان لا بدّ من الأمر لأداء كلّ الواجبات، وبعدها النهي عن كلّ المحرّمات، ونادراً جداً ما جاء أحدهما منفصلاً عن الآخر، فإذا أخذنا المقطوعة التالية في كليتها، سنلاحظ ذلك التشابك الواضح الذي يشمل صيغ الأمر والنهي، وتتاوبهما في كلّ مرّة " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ إِخْبَارًا بِمَا هِيَ غَائِبَةٌ عَنْ ظُهُومِ الْوَجْدَةِ (أمر) فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ (شرط) فَلَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (جواب شرط + أمر) وَلَا تَخَافِي (نهي) ، وَلَا تَحْزَنِي (نهي) إِنَّا رَأَوُهَا إِلَيْكَ (بشارة) وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (بشارة) ".³

إنّ التداول مكفول حتى في صيغة الوحي والإلهام، باعتبارها درجات في التواصل، وقد تعدّدت المواقف الخطابية، كما تعدّدت أفعال الكلام، لكون الأمر في هذه الآيات يدعو أمّ موسى إلى الكيفية التي تفيدها في استمرار حياة ابنها، ثمّ يطمئنها ويزيل قلقها لتثق في الله، خاصة لما يعلمها بإعادته إليها وجعله من المرسلين، وهذا ما تحقّق بالفعل، إذ نجا موسى من الموت بقدرة الله العجيبة.

والملاحظ أنّ الأمر بإلقائه في اليمّ كان جواباً لشرط الخوف، حيث تجاوز حدود الطلب ليخرج إلى معنى أشمل هو التدليل على طريق النجاة، وإنّ ختام الآية ببشارتين جعل أمّ موسى كمتلقية للأوامر والنواهي، مهياً لتقبّل كلّ الشروط التي يملها عليها الوحي، ضمن صيغ طلبية نقلت من مجال الطلب إلى مجال التنفيذ.

¹ أحمد محمد فارس ، النداء في اللغة والقرآن ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1989 ، ص135.

² ينظر : خوسيه إيفانوكس ، نظرية اللغة الادبية ، ترجمة حامد ابو حمد ، مكتبة غريب ، مصر دت ، ص 88.

³ سورة القصص ، الآية 9.

و يُعد الاستفهام من الآليات التوجيهية، بوصفها توجه المرسل إليه إلى ضرورة الإجابة عنها، فيستعملها المرسل للسيطرة على مجريات الأحداث، والسيطرة على ذهن المرسل إليه وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل. وتعدّ الأسئلة المغلقة من أهمّ الأدوات اللغوية لإستراتيجية التوجيه¹.

فعند استعمال الأداة هل كقوله تعالى: " إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ، " 2 وقوله: "يَوْمَ يَقُولُ لِرَجُلَيْنِ هَلْ إِمْتَلَأْتِ

وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ "3. إذ ليس القصد من الآية الأولى أن تجاب أخت موسى عن

سؤالها بـ "نعم" أو "لا"، وإنما قصدها أن تبلور الإجابة في عمل فعلي، فأفادت التوجيه عن طريق الاستفهام ، فأعيد موسى إلى حضن أمه. أما في الآية الثانية، فيدخل الاستفهام في باب المجاز، إذ " ليس يومئذ قول منه لجهنم ولا قول من جهنم وإنما هي عبارة عن سعتها⁴ ، فيؤول ابن قتيبة ذلك باعتباره إقراراً بما ذهب إليه أصحاب المذهب الاعتقادي ، كلّ أفعال القول باعتبارها انزياحات في مستوى التداول معهودة عند العرب.

1- ب - أفعال الأسف والحسرة:

" يستعمل المتكلم في مقامات خاصة كالرضا والغضب والحزن والنجاح أفعالاً كلامية غرضها التعبير عن المشاعر والأحاسيس، وهي كثيرة، منها: الشكر، الاعتذار، التهنية، المواساة، الندم، الحسرة، الغضب، الشوق....⁵

¹ ينظر ، عبد الهادي ابن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2004 ، ص 324.

² سورة طه الآية 40.

³ سورة ق ، الآية 30.

⁴ ابو محمد عبد الله مسلم ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ترجمة السد أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، ط 2 ، دت ، ص 108.

⁵ ينظر ، النعمان بن قرة ، نظرية لسانية عربية لأفعال الكلامية ، قراءة إنكشافية للتفكير التداولي ، في مدونة لسانية تراثية ، مجلة اللغة والادب ، ع 17 ص 197-198.

كما جاء على لسان امرأة عمران وهي تتحسرّ على كونها أنجبت أنثى وكانت تتمنى أن يكون المولود ذكراً، " فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾ " ¹ فالآية تجمع بين مشاعر الحسرة

والأسف، لأنها تمنّت لو أنجبت ولدًا، وكانت قد نذرته أن يكون " خالصاً مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس " ². ذلك أنّ النذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للذكور، ولهذا توجهت إلى ربّها في نغمة أسفة على كون المولود ليس ذكراً ينهض بالمهمة التي كانت قد نذرته لها. كما نلمح في حديثها شكل المناجاة الرتيبة التي يشعر صاحبها أنه منفرد بربه يحدثه بما في نفسه حديثاً مباشراً. والمناجاة شكل من أشكال الخطاب الدعائي ذات الاتجاه الواحد من أنا إلى أنت (الله) ³. فيتحوّل الحدث من أسف وحسرة إلى مناجاة متوجّهة بالاستجابة

والتقبّل، لقوله تعالى: " فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا

رِزْقًا قَالَ يَلْمِزِيْمُ أَبْنَىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ " ⁴. لقد استجاب الله لها جزاء إخلاصها وتجردها الكامل في النذر،

وجعل النبيّ زكريا يكفلها، فنشأت مباركة يرزقها الله فيضاً من رزقه بغير حساب.

يجمع مشهد "صاحب الجنين" في (سورة الكهف) بين الحسرة والندم، في قوله تعالى:

" وَاحْصِلْ بِثَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُفَلِّبُ كَقَبِيهِ عَلَىٰ مَا أَنْبَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ

¹ سورة آل عمران ، الآية 37.

² ابو الفداء اسماعيل ابن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي ، تفسير القراءان العظيم ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2002 ، ج 1 ، ص 155.

³ آمنة بلعلى ، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، منشورات الإختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2002 ، ص 94.

⁴ سورة آل عمران ، الآية 37.

عَلَى غُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا¹. إذ نجد في القصة

تعمق المبدأ الحوارية وتغلغله بين آياتها، لأنها عبارة عن مقابلة بين طرفين متناقضين: طرف فقير معتز بإيمانه، وطرف غني مغرور بمكتسباته، ومن ثمّ ينشأ الحوار الوارد بين ثنايا القصة، والخاضع لذبذبات متنوّعة ومختلفة حسب طبيعة الحوار نفسه الذي انتقل من التعبير عن حالة الزهو والفرح إلى التعبير عن حالة الأسى والحسرة، فتنتهي أحداث القصة بوصف مشهدي يغلب عليه النفس التفجعي الذي يسير على نحو متدفق، فتطغى المصطلحات المأخوذة من معجم الدمار من جهة، ومن معجم الحسرة والأسف من جهة أخرى. وتلتحم هذه المصطلحات في القصة لتخلق عالماً متناقضاً يتمثل في مشهد الجنّين المحفوفتين بكلّ الخيرات ومشهد الدمار والخراب الذي آلت إليه في النهاية، فتعود بنا القصة إلى حيث الجزاء المنتظر لكلّ منكر ومتكبر، وبتداوليّة مباشرة وسريعة يتحقّق الجزاء المتمثّل في الخراب والدمار الذي يجسّده مشهد نهاية القصة.

- 2- أفعال الوعد والوعيد:

يلتزم المخاطب بفعل شيء اتجاه المخاطب طوعاً، وتمثّله أفعال الوعد والوعيد والضمان والإنذار، وهي كثيرة في الخطاب القرآني، والفرق بينها وبين الأفعال الطلبية كونها متجهة نحو المتكلم، بينما تتجه الأفعال الالتزامية نحو المخاطب.² يصنّف الشاطبي بعض الخطابات على أنها أوامر غير صريحة، فمنها ما جاء على شكل أخبار، ومنها ما جاء على شكل مدح للفاعل في الأوامر، والعقاب في النواهي، وهذه الأمور دالة على طلب الفعل في الأمور المحمودة، وطلب التّرك في الأمور المذمومة.³

فذكر العواقب من الآليات المباشرة والصريحة التي يوجّهها المرسل إلى المرسل إليه وفق مجموعة من الأوامر والنواهي، تختم بإظهار العقاب في الأخير، أو ما يسمّى بالجزاء في

¹ سورة الكهف ، الآية 42.

² النعمان بوقرة ، نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية ، قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية ، مجلة اللغة والأدب العدد17 ، ص 197.

³ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة ، تخريج وضبط إبراهيم رمضان ، دار المعرفة ، بيروت ، ج3 ، ط3 ، 1997 ، ص142/143.

القرآن الكريم، الذي ارتبط أساساً بالوعد والوعيد، وهذا يناسب السياق الذي وردت فيه الآيات المرتبطة بأداء الواجبات وترك المحرمات، كما في قوله تعالى: " فَمَنْ إِتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣١﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْفَيْلَمَةِ أَعْمَى " ¹. فقد ارتبط الضلال والشقاء باتباع هدى

الله أو عدمه، لذلك كانت مَنْ أداة شرط لمن اتبع هدى الله ومن أعرض عن ذكره، وكانت الفاء جواب الشرط بعدم الضلال والشقاء، بالنسبة لمتبع الهدى، والمعيشة الضنكا لمن أعرض عن ذكر الله. إذن فالشرط في هذه الآيات يمثل أوامر ونواهي مقترنة بالجزاء في الدنيا والآخرة.

وقد تكررت صور الزجر والوعيد في القرآن الكريم، وصور بسط الموعدة وتثبيت الحجة بطريقة تفيد تقرير الحقائق ، والوعيد في القرآن الكريم يتنوع تنوعاً عجبياً حسب اختلاف طبيعة النفوس ، واختلاف البيئات ، فالعامة من الناس الذين يكتفون من الحياة بظاهرها وسطحها يغلب على وعيدهم التخويف بالعقاب الجسدي ، كعذاب جهنم ولهبها ، أما الخاصة كالسادة وذوي الزعامة فوعيدهم يتميز بطابع الإذلال والإهانة.

فالوعيد هو في أسلوب القرآن الكريم يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول وله مقاصد تتمثل في التأثير على أفكار المتلقي وأفعاله ، وجعله يخضع لأوامر الله ونواهيها.

لقد تعددت أفعال الكلام المباشرة وتعددت المواقف الخطابية ، وتداخلت الأفعال فيما بينها ، وفرضت ذاتها على المخاطب ، عبر كامل صفحات النص القرآني ، وقد سيطر فيه ضمير المخاطب الذي يملك السلطة في الأمر والنهي ، نظراً لإملاكه سلطة الإستعلاء على المأمور ، وإملاكه الأليات والاساليب الكافية للتوجيه الخطابي والتأثير في المتلقي ، وهنا نشأت أفعال كلامية أخرى تلفظ بها أشخاص آخرون ، وقاموا بوظائف خطابية كان لها الدور البارز في تشكيل دورة التخاطب.

II - الأفعال الكلامية غير المباشرة:

يستطيع المرسل أن يعبر عن قصده وفق شكل اللغة الدلالي مباشرة بما يتطابق مع معنى الخطاب ظاهرياً، وقد يعدل عن ذلك فيلج بالقصد عبر مفهوم الخطاب المناسب للسياق،

¹ سورة طه ، الأيتان 123.124.

لينتج عنه دلالة يستلزمها الخطاب ويفهمها المرسل إليه، وهذا يؤدي بنا إلى نتيجة مهمة هي مركزية السياق في منح الخطاب دلالاته للتعبير عن القصد، وهذا يعني أنّ للخطاب معنى مباشراً له قوة إنجازية حرفية تدلّ عليه ألفاظه حسب ما تمّ التواضع عليه في اللغة، غير أنّه قد يمنح السياق للخطاب أكثر من قصد فلم يعد الإخبار هو القصد الوحيد عند المرسل، وإن عددناه واحداً من مقاصده، فليس القصد الرئيس، إذ يختبئ وراءه قصد آخر، اختار المرسل الإستراتيجية التلميحية للدلالة عليه، وهو إما الرفض أو التهكم، ولذلك لم يستعمل المرسل صيغة الخطاب المباشر.

إنّ الأفعال الكلامية غير المباشرة يحدّد معناها بتفسيرها الظاهري، أما قوتها فتحدّد بالتحقيق غير المباشر، وقد فسرت هذه المسألة باللطافة والتأدّب، بوصفه سبباً أساسياً باطنياً لاستخدام الأسلوب غير المباشر، فهو قدرة يمتلكها المتكلم والمستمع معاً، كما أوضح "سيرل" و"جرايس"، بينما اعتبره "ليتش" مستوى سطحياً يتعلّق مباشرة بالعادات والطبائع المتعارف عليها، كما اعتبرت عند الآخرين استجابة لدواعٍ سياقية تجعل المرسل يعدل عن استعمال الخطاب المباشر بدوافع معينة كالسلطة أو مراعاة للتأدّب، ومن هنا نصل إلى أنّ الفعل الكلامي غير المباشر يتمثّل في تلك الأقوال الخارجة في دلالتها عن مقتضى الظاهر، وهي أفعال سياقية لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن اللسانية والحالية وأضرب الاستدلال العقلي.

1 - بعثة الرسل وأسلوب الالتماس:

يستعمل المرسل أسلوب التأدّب مراعاة لما تقتضيه بعض الأبعاد. فالبعد الشرعي يملّي ضرورة اطراح فاحش القول، والبعد الاجتماعي يستدعي ضرورة احترام أذواق الناس وأسماعهم، أما البعد الذاتي، فهو صيانة الذات عن التلفظ بما يسيء إليها¹. ويؤكد "سيرل" أنّ التأدّب من أبرز الدوافع لاستعمال الإستراتيجية غير المباشرة في الطلب. وقد استعمل هذا النوع في القرآن الكريم في مجال بعثة الرسل إلى أقوامهم، وقد أمروا باستعمال أسلوب التأدّب والالتماس، حتّى ترقّ قلوب المدعوّين ويستجيبون لدعوتهم، كما هو الحال عند إرسال موسى إلى فرعون في قوله تعالى: " هَلْ آتَيْكَ حَدِيثٌ مُوسَى "

¹ ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربه لغويه تداوليه، المرجع السابق، ص 372.

﴿١٥﴾ إِذْ نَادِيَهُ رَبُّهُ يَا لَوْلَا اِلسَّمْفَدْسِ طَوَى ﴿١٦﴾ اِذْهَبِ اِلَى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ طَغَى

﴿١٧﴾ بَقُلْ هَلْ لَكَ اِلَى اَنْ تَرْجَى ﴿١٨﴾ وَاَهْدِيكَ اِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾¹

تبدأ الآيات باستفهام للتمهيد وإعداد النفس لتلقي القصة، فتبدأ أحداثها بندااء موسى ومناجاته، وهو بالواد المقدس، ثم يبدأ التكليف الإلهي له، فيرسله إلى فرعون الطاغى، فيعلمه كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب لعله ينتهي عن طغيانه، ليقول له: هل لك أن تتطهر من هذا الطغيان، هل لك أن أعرفك بطريق الله؟

لقد بعث الله نبيه موسى إلى فرعون وعلمه الأسلوب المتأدب الذي يتخذ الأولوية في المجال الدعوي الذي يجعل من غير المناسب أن يتوجه إليه بشكل مباشر ليأمره وينهاه مباشرة، ولهذا التزم السياق القرآني هذا الأسلوب لإنجاز الأفعال الواجبة، ومن ثم يأتي مشهد المواجهة والتبليغ مختصراً لقوله تعالى " فَأَرِيهِ اَلَايَةَ اَلْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ

وَءَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ اَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ اَنَا رَبُّكُمْ

اَلْاَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَاَخَذَهُ اَللّٰهُ نَكَالَ اَلْاٰخِرَةِ وَاَلْاَوَّلَى ﴿٢٥﴾ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَعِبْرَةً

لِّمَنْ يَّخْشَى ﴿٢٦﴾²

ورغم استعمال هذا الأسلوب المتأدب المحبب، إلا أنه لم يفلح في إلانة القلب الطاغى، فأراه موسى الآية الكبرى التي تعني آية العصا واليد البيضاء كما جاء في المواضع الأخرى، (فكذب وعصى) ، لينتهي مشهد التبليغ بالتكذيب والمعصية وعدم الاستجابة للحق، فيجمع فرعون سحرته للمباراة بين السحر والحق، لتنتقل منه الكلمة الطاغية المغرورة: ، ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى، لأنه أشد وأبقى ، وهو النكال الحقيقي والأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها الموضوع الأساسي، ويتسق لفظياً مع الإيقاع الموسيقي في أواخر الآيات.

2 - خروج الأفعال اللغوية عن حقيقتها:

¹ سورة النازعات، الايات من - 15 الى 19-

² سورة النازعات ، الايات من 20الى 26

ينجز المرسل أفعالاً لغوية غير مباشرة باستعمال أفعال لغوية أخرى لتدلّ على معنى آخر غير الذي وجدت له في حقيقتها، فتتولد عنها معانٍ أصلية وترد في سياقات تناسب المقام، ويكون ذلك بواسطة ما يسمى بـ"قرائن الحال"، إذ تخترق أحد شروط إجراء المعنى الأصلي فيمتنع إجراؤه، ويتولد معنى آخر يناسب المقام.

ويمكن الإشارة إلى دور المتكلم في القرآن على مستوى التركيب الخاص به، حيث يمكن أن تنتقل دلالة التركيب كلّها من مستوى إلى آخر، فيتحوّل الأمر مثلاً إلى تهديد، كما جاء في قوله تعالى: "وَاسْتَفْزِرْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ

الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا"¹، حيث تحوّلت صيغة الأمر من معناها الوضعي إلى معنى

مجازي هو "التهديد"، ذلك أنّ المتكلم (الله) لا يمكن أن يقصد أمر الشيطان بغواية البشر، وهو يتنزّه عن الأمر بفعل القبيح.

وهناك تحولات يقصد إليها المتكلم في الأفعال الكلامية ببعض الأدوات والأساليب، كما يحدث في حالة الاستفهام إذا تضمن معنى آخر، كالتعجب مثلاً، فإنّه يحمل معنى الخبر، إذ لما يدخل التعجب على الاستفهام، يعيده إلى أصله من الخبرية، كقوله تعالى: "فُلْ هَلْ

مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوْا الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فُلْ اللَّهُ يَبْدُوْا الْخَلْقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَبَى تُوبِكُونَ ﴿١٦﴾ فُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

فُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَقْمَنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَوْ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي

إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ"².

¹ سورة الاسراء ، الايه 40

² سورة يونس، الايه 35

فالآية تحمل تعجباً على شكل استفهام، والعجب من الله إنكار الشيء و تعظيمه¹، ولا يوصف الله تعالى بالتعجب لأنه استعظام يصحبه الجهل، وهو تعالى منزّه عن ذلك، وإنما المراد تعجيب العباد من مذهبهم الفاسد. فالغاية من هذا التعجيب أن يعود المخاطب إلى صوابه إن كان منكراً، وأن يحاسب نفسه ليشعر بالضلال الذي هو فيه، وهذا دليل على قدرة الأسلوب القرآني على استيعاب المعاني وتويعها، وبلاغة إقناعه في توصيلها إلى المتلقّي، فقصد المتلقّي واضح رغم طبيعة الاستفهام التي جاءت عليها الآية في (الهمزة) و(هل).

3 - الاستلزام الحواري:

يستعمل المتكلم آية لا يرتبط فيها اللفظ والقصد برابط لغوي، وإنما يرتبط ببيان القصد على إسهام عناصر السياق الموظّفة، فالمتلقّي لا يدرك معناها إلا من خلال القرائن وأضرب الاستدلال العقلي، كأن يرد المخاطب على السائل ردّاً لا يصلح حرفياً أن يكون جواباً عما سُئِلَ، فيكون بواسطة القرائن قد أجاب عما سُئِلَ عنه في مقام التعريض، وهو المصطلح عليه بالاستلزام الحواري²، ويشمل الكناية والتلميح والسائل بغير ما يطلب كما حدث عند سؤال الناس عن الأهلّة في القرآن الكريم. والتعريض من الآليات الإستراتيجية التلميحية المستعملة عند العرب بكثرة في خطاباتهم، فقد اعتبر من علامات الكفاءة التداولية عند المرسل، ودليلاً على النبوغ الخطابي، يستعمل لغايات معينة ومقاصد متنوّعة ومراعاة لما يتطلّبه السياق.

ومن أمثله في القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى: " فَالْتِ إِحْدِيَهُمَا يَأْتِ

إِسْتَجِرَةٌ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَ لِرَعِي الْغَنَمِ " ³ . فقد رأت الفتاة من موسى

القوة والأمانة، فأشارت على أبيها باستجاره لرعي الغنم، وهذا ما رآته منه لما كان الرعاء يسقون، فاستمهلهم وسقى لها ولأختها، وببساطة فهم أبوها قصدها، فعرض إحدى ابنتيه من

¹ ينظر ، السيوطي معترك الأقران في اعجاز القرآن ، تحقيق، محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي ، القاهرة ج 1، 1969، ص 54

² ينظر نعمان بوقرة، نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية ، قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية مرجع سابق ص199

³ سورة القصص الايه 26

غير تحديد، " قال إني أريد أن انكحك إحدى ابنتي هتس على أن
تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشو
عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ¹ .

لقد تكلمت الفتاة بخطاب يستلزم أنها معجبة بهذا الرجل، وقد فهم أبوها أنها تقصد شيئاً آخر وحدثته من باب آخر، فلما منعها الحياء من التصريح لجأت إلى التلميح بالتعريض عوضاً عنه، وبما أنه لا يربط بين لفظ التعريض وقصد المتكلم أي روابط لغوية، فقد فهم الأب قصد ابنته، فعرض على موسى تزويجه إحدى ابنتيه، وقد تيسر التعامل الخطابى بين الأطراف المتحاوره، ذلك أن المتكلم يستعمل التعريض في خطابه متى كان واثقاً أن المتلقي يفهم قصده، وفي حالة ما إذا لم يفهم قصده، فسوف يضطر إلى التصريح به لفظاً، أو باستعمال علامات غير لغوية، حتى يتقن المتلقي إلى قصد المتكلم.

4 - خطاب التهكم:

يستعمل المتكلم تقنية التهكم باعتبارها إحدى الإستراتيجيات غير المباشرة، وهي تستلزم قصداً غير ما يدل عليه الخطاب بمعناه الحرفي، وتعني عند علماء البيان إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب. وقد أشار الزركشي في كتاب "البرهان في علوم القرآن" إلى آلية التهكم كخطاب يحفل به النص القرآني، وعرفه بقوله: هو الاستهزاء بالمخاطب، مأخوذ من "تهكم البئر" إذا تهدمت ².

ومن ألفاظ التهكم التي يشتهر بها القرآن الكريم، استخدامه لكلمة نزل في غير موضعها، كقوله: "وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ۖ فَسَوْفَ نُنزِّلُ مِنْ سَمِيمٍ ﴿١٦﴾ وَتَصْلِيَةً جَحِيمٍ". فقد تواترت لفظة (نزل) في آيات عدة من القرآن الكريم، وجاءت غالباً مقترنة بمأوى الكفار يوم الآخرة، تحمل تهكماً وسخرية مريرة، ذلك أن النزل لغة: هو الذي يقدم للنازل تكرمة له قبل حضور الضيافة.

¹ سورة القصص الايه 27

² يحي بن حمزة العلوي، كتاب الطراز، ضبط وتدقيق، محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلميه ببيروت، ط1، 1995، ص

ففي هذه الآيات موضع تهكمي يتمثل في جعل نار جهنم مأوى ونزلاً للكافرين، وإن قصد المتكلم واضح بالنسبة للمتلقى رغم كونه غير مباشر، ذلك أن موضع الكفار في نار جهنم يتناقض مع ما يقدم للنازل من حسن الضيافة، فجاءت الآيات بطريقة ساخرة مرة استعملت بقصد مضاد لمعناها تماماً.

ومن بين الأوجه التي ترد عليها تقنية التهكم، أن يرد الفعل المضارع مع (رُبما) أو أن تسبقه (قد) للدلالة على التقليل رغم قدرة المرسل على تنفيذ مقتضى خطابه، وهذا ما يتضح

في قوله تعالى: " فَدُ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوفِينَ مِنْكُمْ وَالْفَآيِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ¹ .

فالآية تقرر علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون إلى خذلان المسلمين، فيدعون إخوانهم إلى القعود، فلا يشهدون الجهاد، وذلك يعلمه الله رغم استخدام قد قبل المضارع، ولكنها لا تدلّ على التقليل، وإنما على التحقيق كما لو ارتبطت بالماضي، إنما جاءت بهذه الصيغة دلالة على السخرية والتهكم من أولئك القاعدين الذين يظنون أن الله لا يعلم قعودهم، فإله لا تخفى عليه خافية يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور.

فقد اتضح قصد المرسل في هذا الخطاب التهكمي منذ البداية، إذ عبرت الآيات عن موقف القاعدين ووصفت الأحداث المحيطة بكل أطراف الخطاب، والآيات نقد تهكمي لأفعال القاعدين، ويظهر ذلك خاصة حين يصفهم القرآن بالجبن، وهم على صورة مضحكة مثيرة للسخرية، التي هي شكل من أشكال النقد التهكمي الذي يهدف إلى السخرية من أصناف معينين من الناس لما يمتازون به من صفات ذميمة.

لقد تجاوزت الأفعال الكلامية في القرآن الكريم صيغتها المباشرة إلى معنى غير مباشر، وذلك في سياق الإشارة إلى إمكانية مخالفة ظاهر اللفظ لمراد المتكلم، فنتحول الأفعال الكلامية بوجود جملة من القرائن المقالية والمقامية يختارها المرسل لتحقيق قصد معين. وقد ارتبط الوضع بالقصد في أسلوب القرآن الكريم، مما أدى إلى كثرة تلك الأفعال التي تخرج عن حقيقتها وتتجاوز ظاهرها إلى مقاصد أخرى يرمي القرآن الكريم إلى تحقيقها.

¹ سورة الأحزاب ، الايه 18.